كانت قاعدة زعماء السياسة في تلك البلاد إمتناع أميركا عن التداخل في شؤون أوربا حتى لا تحمل هذه بأن تجعل أميركا مستعمرة لها، وهي القاعدة التي يجب ان يجري عليها كل شعب فتي أمام الشعوب القديمة يود أن ينمو حراً على ما تقتضيه قواه ومصالحه ولم تفكر الولايات المتحدة الا في الاحتفاظ بحقوقها ومصالحها ولو أدى بها ذلك الى سلب حقوق الجمهوريات الصغيرة بالقوة احياناً . وبالجلة فان معنى ما كان الاميركان يتطالون اليه كان محصوراً في قولهم « أنا وأود أن أكون »

التفاضل بالبلاد

الف الناس التمجد بالبلاد ، والآباء والاجداد ، والمال والبنين ، عادة في البشر تكثر فيهم بكثرة الجهل وتقل بانتشار العلم ، ولقد كان لاهل هذه البلاد من هذا التمجد الباطل قسط وافر ، ساعد على انمائه في النفوس جهل بعض ولاة الامر السالفين ، واتخاذ هذه الاضاليل حجة على من يريدون مناوأته وإرجاعه الى الطاعة . ولطالما خطب الحجاج في أهل العراق ووصفهم بقوله أهل الشقاق والنفاق ومساويء الاخلاق وأطلق عليهم من قبله ومن بعده من أمراء ذلك القطر مثل تلك الصفات وما كانت هذه المعاملة لاهل العراق إلا سياسية ولو كانت أخلاقهم كذلك وكان فيمن ولي رقابهم علم وشفقة لسعى السعي الحثيث الى نزعها منهم بحكم العادة والأسوة والقدوة ولعل هذه الدعوة كانت جملة فلسفة أولئك الحكام وبيت قصيد حملهم على رقاب الناس وكان من أهل الشام ان وسمهم أعداؤهم بكل كبيرة والصقوا فيهم باطل التهمات . وهكذا الحال بين الشام والحجاز والشام والعراق فان

عظم المؤرخين والمؤلفين نبغوا في العراق فاكثروا في مصنفاتهم من الاحاديث الموضوعة على أهل الشام لقلة من كتب من هؤلاء ودافع عنهم. ومثل ذلك قل في المغرب مع مصر ومصر مع الشام وفارس مع الهند وكلها في الحقيقة سفاسف لا تساوي درهما عند المحققين . وما البلاد في أمر الافضلية الا سواء لا يفضل شرق عن غرب ولا جنوب عن شمال الا بالعلم النافع والادب الرافع والعمران والسعادة. ولذا ضل رأي من وضعوا من المتأخرين كتباً خاصة في فضائل بلد أو قطر . وأضل منهم من وضعوا أحاديث مكذوبة على الرسول صلى الله عليه وسلم في تفضيل مدينة أو بلد كما ضل من وضعوا الموضوعات طعناً على فئة خالفت ماهم عليه.

وبعد فالارض كلها سواء في هوائها ومائها دحاها الله ليعيش فيها البشر ويتنقلوا في أقطارها وقد لا تختلف الاقطار المتنائية في قوة الانبات الا قليلا فليس من العقل ان تمدح بلد لجبل فيها ، أو سهل فسيح حواليها ، أو نهر كبير يمر في وسطها ، ولا ان تذم أخرى لحرارتها ، أو لضيق حاراتها وجاداتها ، فكانت مصر ولا تزال مثلا منذ الوف من السنين طريدة من الارض عرفت بخصبها وغناها الطبيعي وكانت الشام ولا تزال منذ ألوف من الاعوام مشهورة باختلاف أهويتها . ورقة نسيمها ، وتنوع جبالها وأوديتها ، فما عد ذلك فضيلة للاولى على الثانية ولا للثانية على الاولى . بل حسب لهما ذلك خاصية يمتاز بها كلا القطرين بعضهما عن بعض . وقد أنصفهما في الوصف أحد عمال الدولة وقد سئل عنهما فقال: مصر مزرعة ممرعة والشام مصيف بهيج

ان كان ماتفاخر به البلاد بعضها بعضاً هذا اذا سوغنا التفاخر فبالعلم

والتربية وغلبة الفضيلة والخير على طبقات الناس كلها لا بالماء والهواء والواحات والجبال والاودية والاشجار والاثمار وكل ماوزعته الطبيعة بين بلدان العالم فنال كل منها بحسب حالته . دخل أبو الحكم المغربي الاندلسي الحكيم المرسي مدينة دمشق فلما حل ظاهرها سير غلاماً له يبتاع لهما ماياً كلانه في يومهما وأصحبه نزراً يكفي رجلين فعاد الغلام ومعه شواء، وفاكهة وحلواء، وفقاع وثلج ، فنظر أبو الحكم الى ماجاء به وقال له عند إستكثاره أوجدت أحداً من معارفنا فقال لا وإنما ابتعت هذا بما كان معي وبقيت منه هذه البقية فقال أبو الحكم هذا بلد لايحل لذي عقل ان يتعداه ودخل وارتاد منزلا وسكنه وفتح دكان عطار يبيع به العطر ويطب وأقام على ذلك إلى ان وافاه اجله .

ومثل ذلك ماوقع للملك المعظم شمس الدين توران شاه أخو السلطان صلاح الدين يوسف لما تمهدت له بلاد اليمن واستقامت أمورها مل المقام بها وحن الى الشام وفيها نشأ واشتاق الى خيراتها والتمتع بثمراتها اذ أن اليمن مجدبة من ذلك . قال ابن خلكان فكتب الى أخيه صلاح الدين يستقيل منها ويسأله الاذن له في العود الى الشام ويشكو حاله ومايقاسيه من عدم المرافق التي يحتاج اليها فارسل اليه صلاح الدين رسولا مضمون رسالته ترغيبه في الاقامة وأنها كثيرة الاموال ومملكة كبيرة فلما سمع الرسالة قال لمتولي خزانته : احضر لنا الف دينار فاحضرها فقال لاستاذ داره والرسول حاضر عنده : أرسل هذا الكيس الى السوق يشترون لنا بما فيه قطعة ثلج فقال أستاذ الدار يامولانا هذه بلاد اليمن من أين يكون فيها ثلج . فقال : دعهم يشترون بها طبق مشمش لوزي . فقال: من أين يوجد هذا النوع ههنا فجعل

يعد عليه جميع أنواع فواكه دمشق وأستاذ الدار يظهر تعجبه من كلامه وكلما قال له عن نوع يقول له: يامولانا من أين يوجد هذا ههنا فلما استوفى الكلام الى آخره قال للرسول: ليت شعري ماذا أصنع بهذه الاموال اذا لم أنتفع بها في ملاذي وشهواتي فان المال لا يؤكل بعينه بل الفائدة فيه انه يتوصل به الانسان الى بلوغ أغراضه .

ولعمري هل يصح ان تجعل أمثال هذه القصص حجة في أفضلية دمشق على غيرها من أمهات المدن حيث المعيشة غالية وهل هذا الرخص مما ينبغي ان يفاخر به وأهل الاقتصاد في عصرنا يجعلونه اذا استحكم من بلد شؤماً عليه ويعدون البلد كل البلد الذي غلت فيه أسعار الحاجيات والكماليات وارتفعت الاجور والارتفاعات على نسبتها. والامثلة على ذلك كثيرة فانه يبلغنا لهذا العهد عن بلاد الاناضول وهبوط أسعار المأكولات فيها لقلة مايصدر عنها مالا يكاد يصدق لولا تواتره على السن الطارئين على ذاك الصقع فهل تفضل السكنى فيه على الروم ايلي المرتفعة أسعار الارزاق فيه . وبعد فان كان لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى فلا فضل لبلد على أخرى الا بالعلم والعمل والسعادة الحقيقية .